حِجاجيَّة التَّناصِّ في الخطاب السِّياسيِّ للشَّيخ العربي التبسِّي.

د: لزهر فارس.
جامعة الشَّيخ العربي التبسِّي – تبسَّة.

الملخَّص:
نجد في الخطاب السِّياسيّ للشَّيخ العربي التبسِّي- رحمه الله- سبعة أصناف مِن حجاجيَّة التَّناص؛ أوَّلها: حجاجيَّة التَّناصِّ مع القرآن. وثانيها: حجاجيَّة التَّناصِّ مع الحديث. وثالثها: حجاجيَّة التَّناصِّ مع الشِّعر القديم. ورابعها: حجاجيَّة التَّناصِّ مع الشِّعر الحديث. وخامسها: حجاجيَّة التَّناصِّ مع المثل. وسادسها: حجاجيَّة التَّناصِّ مع الموروث الشَّعبيّ. وسابعها: حجاجيَّة التَّناصِّ مع الخطبة. وإنَّ تنوُّع حجاجيَّة التَّناصِّ في كتابات الشَّيخ العربي التبسِّي- رحمه الله- بين القرآن، والحديث، والشِّعر- قديمه وحديثه- والمثل، والموروث الشَّعبيّ، والخطبة؛ دليل حيٌّ على سعة ثقافة الرَّجل، وخصوبة فكره، وبعد نظره، وقدرته على الحِجاج والإقناع، وبراعته في نسج الحجَّة. وإنَّ حُسن توظيف هذه التَّناصَّات دليل شامخ على موهبته الأدبيَّة، وقدرته اللُّغويَّة، وتمكُّنه مِن ناصيَّة القول.

الكلمات الدَّالَّة:
حِجاج، تناصٌّ، خطاب سياسيٌّ، شِعر، مَثَلٌ، موروث شعبيٌّ، خطابة.

- تقديم حول الإشكالية والمفاهيم:

بدايةً نطرح الإشكالية الآتية: هل للتَّناصِّ وظيفة حجاجيَّة في كتابات الشَّيخ العربي التبسِّي[1]- رحمه الله؟ الجواب: نعم، "يُكْسِبُ التَّناصُّ [كتابات الشَّيخ العربي التبسِّي] حجِّيَّة تدفع نحو إقناع المتلقِّي والتَّأثير فيه تبعًا للنَّصِّ المُتناصِّ معه، فبعض ما تتناصُّ معه [هذه الكتابات] يمثِّل حُجَّةَ سُلْطَةٍ، لاسيَّما حجِّيَّة النَّصِّ الدِّينيّ، والأمثال السَّائرة،"[2] فهي كثيرًا ما تؤيِّد رأي الشَّيخ- رحمه الله- وتنسلُّ إلى المتلقِّي، فتقنع عقلَه، وتؤثِّر في وِجدانه، ومن ثمَّة تمتدُّ لتغيِّر سلوكه، وهو ما كان يطمح إليه الشَّيخ في جلِّ كتاباته.

والحِجاج (Argumentation) في أوضح معانيه الاصطلاحيَّة "جنس خاصٌّ من الخطاب، يُبنى على قضيَّة أو فرضيَّة خلافيَّة، يعرض فيها المتكلِّم دعواه مدعومةً بالتَّبريرات، عبر سلسلة مِن الأقوال المترابطة ترابطًا منطقيًّا؛ قاصدًا إقناع الآخر بصدق دعواه والتَّأثير في موقفه، أو سلوكه تجاه تلك القضيَّة"[3]. إذن موضوع الحِجاج مسألة مخصوصة، لا تتَّصف بالعموم، ووسيلته سلَّم من المقدِّمات والنَّتائج، وهدفه الإقناع والتَّأثير.

هذا عن الحِجاج من وجهة اصطلاحية، أمَّا إذا نظرنا إليه من وجهة لغويَّة، فإنَّ كلمة الحِجاج "بحكم صيغتها الصَّرفية الدَّالة على معنى المشاركة في تقديم الحجج، وعلى مقابلة الحجَّة بالحجَّة؛ مؤهَّلة أكثر من كلمة الاستدلال لتؤدِّي مفهومًا مهمًّا جدًّا... وهو مفهوم المناقشة والحوار"[4]. ويمكن أنَّ نؤكِّد أنَّ الاستدلال، وإن قارب معناه معنى الحِجاج، فإنَّه لا يُطابقه؛ وعلَّة ذلك أنَّ الاستدلال يخلو مفهومه من المناقشة والحوار، بينما يحتوي مفهوم الحِجاج- ضِمنًا- المناقشة والحوار بين مُنتِج الحجَّة ومتلقِّيها.

ونستطيع تعريف التَّناصّ (intertextualité) بأنَّه "إلغاء للحدود بين النُّصوص الأدبيَّة، ورصد لما يحدث بينها مِن تداخلات في ظلِّ انفتاحها بعضًا على بعض."[5] وكما يصدق هذا الحكم على النُّصوص الأدبيَّة يصدق على النُّصوص غير الأدبيَّة، فالنَّصُّ لا يمكن أن يُخْلَقَ مِن عدم، بل هو وليد نصوص سابقة، هضمها الكاتب بطريقة مباشرة وغير مباشرة، ثم استثمرها في إنتاج نصِّه الجديد.

وعلى هذا، فالتَّناصُّ مصطلح نقديٌّ حديث شامل للعديد مِن أشكال اتِّصال النُّصوص بعضها ببعض، ولذلك "علينا أنْ نسلِّم أنَّ التَّنَاصِّيَّة تناصِّيات"[6]. وهو ما نجده في كتابات الشَّيخ العربي التبسِّي؛ حيث بلغت التَّناصِّيَّات في كتاباته- بعد التَّحرِّي- سبعة أصناف؛ أوَّلها: التَّناصُّ مع القرآن، وثانيها: التَّناصُّ مع الحديث، وثالثها: التَّناصُّ مع الشِّعر القديم، ورابعها: التَّناصُّ مع الشِّعر الحديث، وخامسها: التَّناصُّ مع المثل، وسادسها: التَّناصُّ مع الموروث الشَّعبيّ، وسابعها: التَّناصُّ مع الخطبة.

وقد حرص الشَّيخ- رحمه الله- في حجاجيَّة هذه التَّناصَّات السَّبعة، على تحقيق وظيفتها التَّواصليَّة أوَّلاً، ثمَّ تحقيق وظيفتها الحِجاجيَّة ثانيًا؛ ومعلوم أنَّ الوظيفة التَّواصليَّة لا تتحقَّق إلا إذا تقاسم الكاتب والقارئ جملةً من المعلومات؛ "فكلَّما كان تقاسم المعلومات، كان ذلك شرطًا لحدوث التَّواصل،"[7] الذي هو مطيَّة لارتقاء تناصَّات الشَّيخ- رحمه الله- إلى الوظيفة الحِجاجيَّة عن جدارة واستحقاق.

1- حجاجيَّة التَّناصِّ مع القرآن:

أكَّد الباحث الحواس مسعودي على لزوم صفة الحِجاج للقرآن الكريم، وأنَّ الإقناع فيه مبنيٌّ على براعة التَّصرُّف في اللُّغة.[8] وكيف لا يكون ذلك، والقرآن حجَّة- دائمًا- لنا أو علينا؟! بل إنَّ "سورة البقرة وآل عمران تحاجَّان عن صاحبهما"[9]، أي قارئهما يوم القيامة، كما أخبر بذلك صاحب الحجَّة، صلَّى الله عليه وسلَّم.

لقد كان القرآن الكريم حاضرًا بقوَّة في كلِّ كتابات الشَّيخ العربي التبسِّي؛ لكونه رجلاً مسلمًا متمسِّكًا بدينه، مقدِّسا لكتابه، نشأ على تعلُّم القرآن، وشَّب على تطبيقه طيلة عمره. ومن أقواله، التي ظهر فيها التَّناصُّ مع القرآن بوضوح ردُّه على تعنُّت الحكومة الفرنسيَّة المستعمِرة للجزائر؛ لتحُوْل دون ممارسة الجزائريِّين شعائر دينهم، مِن تجمُّع للصَّلاة، وجمع للتبرُّعات: "أيُّها المسلمون إنَّنا في يوم حداد على ديننا؛ لن نظلم القانون، ولن نزعج الآمنين، ولن نعرض النِّظام للاضطراب والخلل، فعلى شعبنا أن يستعد للمشاركة في يوم الحداد، وإنَّ هذا اليوم سيبقى يوم حداد كلَّ سنة حتَّى يتحرَّر الدِّين الإسلاميُّ من هذا الظُّلم الذي خصَّصته به فرنسا الاستعماريَّة ﴿إِنْ تَتَوَلَّوا يَسْتَبْدِلْ قَومًا غَيرَكُمْ ثمَّ لا يكُونُوا أمثَالَكُم﴾[10]..."[11]

نلاحظ أنَّ هذا الجزء من كلمة الشَّيخ العربي التبسِّي يتعانق مع الآية (38) من سورة محمَّد في رشاقة وانسيابيَّة؛ حيث أورد الشَّيخ الآية ليؤكِّد معنى تمسُّكه بمبدأ الحقّ الكامل للجزائريّين في ممارسة شعائر دينهم الإسلاميّ دون تضييق وإرهاب مِن قِبل السُّلطات الاستعماريَّة، وأنَّ هذا الدِّين منتصِر- لا محالة- بسبب الجزائريّين المسلمين، أو بسبب أقوام غيرهم.

ويجوز توسعة معنى الحِجاج، وبسطه على خطاب القرآن الكريم؛ ذلك أنَّ "خطاب القرآن حجاج؛ لأنَّه يلحُّ على صفات ثلاث: 1- كونه قرآنًا عربيًّا... 2- يهدف إلى إصلاح النَّاس... 3- قدرته على التَّأثير في متلقّيه."[12] ولو اكتفى القرآن الكريم بهذه الصِّفة الثَّالثة، لكان مِن أسمى الخطابات المُحاجِجة، إذ هو موجَّه للجمهور الخاصّ، كالصَّادقين، والمتصدِّقات... وموجَّه للجمهور الكونيّ، أي النَّاس جميعًا، و"إنَّ ما يربط الجمهورين الخاصَّ والكونيَّ هو عماد الخطاب الحجاجيّ،"[13] بلا منازع.

2- حجاجيَّة التَّناصّ مع الحديث:

ولم يسَع الشَّيخ العربي التبسِّي، الذي استنار بالقرآن الكريم، إلاَّ أن يستنير أيضا بمشكاة النبوَّة؛ وها هو يدعو أعضاء جمعيَّة العلماء المسلمين الجزائريّين- باعتباره أمينها العام- إلى واجب الدَّعوة إلى الله عن بيِّنة، ذاكرًا بعض وسائل الدَّعوة، ثمَّ رغَّب فيها بذكر ثوابها الجزيل، الذي عبَّر عنه الرَّسول ﷺ بقوله: ((خير... من حُمْرِ النَّعَم))[14]. ولا غرابة أن يصدر هذا البيان الجميل مِن رجل سُنِّيّ العقيدة، مالكيّ المذهب.[15]

وهذا نصُّ ما قاله الشَّيخ العربي التبسِّي في هذا الصَّدد: "وليكن في رجال الجمعيَّة مَن يُحي الدِّين في قلوب هذا الجمهور بكل وسيلة تمكِّنهم، كالاختلاط بالجمهور؛ سواء كان اختلاطًا بواسطة المحاضرات في النَّوادي والجمعيَّات، أم بشدِّ الرِّحال إلى الجهات التي يمكن أن يسافر إليها الوعَّاظ باسم الجمعيَّة خدمة لمهمَّتها، التي تكوَّنت مِن أجلها، ويومئذٍ يمكن لهذا القِسم من أفراد الأمَّة أن يفهم دينه، ويتأدَّب بأخلاق الإسلام، وتكون جمعيَّتنا قد أدَّت ما عليها مِن واجبات الإسلام ونشر فضائله وتعليم العامَّة، ومقاومة الأمِّيَّة وردِّ الضَّالّين إلى الصِّراط المستقيم، وقد حكم نبيُّكم- صلَّى الله عليه وسلَّم- على هداية النَّاس فقال: ((لأنْ يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك ممَّا طلعتْ عليه الشَّمس))..."[16]

إنَّ كلام الشَّيخ العربي التبسِّي وهو يتناصُّ مع الحديث الشَّريف؛ يستغلُّ طاقات هذا النَّصّ النَّبويّ الموجز؛ ليرغِّب أعضاء جمعيَّة العلماء المسلمين الجزائريّين في الدَّعوة إلى الله- عزَّ وجلَّ- بأفضل وسيلة؛ لأنَّ الرَّسول لا يكذب في وعده؛ ولأنَّ الله- عزَّ وجلَّ- يرضى بما رضي به نبيُّه- صلَّى الله عليه وسلَّم- ولأنَّ المجازاة عظيمة وكاملة، ولو كان المَهْدِيُّ رجلاً واحدًا. وكأنَّ المقام لا يليق به إلاَّ هذا الحديث، دون غيره مِن الشَّواهد.

3- حجاجيَّة التَّناصِّ مع الشِّعر القديم:

ويؤكِّد الشَّيخ العربي التبسِّي أنَّ الدَّعوة إلى الله- عزَّ وجلَّ- تتطلَّب نَفَسًا طويلاً، وثباتًا أمام الصِّعاب، "وإنَّ الله يعلم، والمسلمون يعلمون أنَّه لولا الله- سبحانه وتعالى- أمرنا بأنْ نبلِّغ هذا الدِّين كما أخذناه لا نُنقص ولا نَزيد، ولو أنَّنا نزحزح أنفسنا عن الذين يكتمون ما أنزل الله مِن البيِّنات والهدى، ما رضينا لأنفسنا أن نخاطب هذه الهلتاء[17] التي لا فقه لها، وكلُّنا نثبت حيث أمرنا الله مستميتين في الدِّفاع عن الدِّين لو قُطِّعنا إربًا إربًا، أو رُمِيَ بنا في أتون، وإن نحن لقينا فحسبنا:

هلْ أنتِ إلاَّ إِصْبَعٌ دَمِيْتِ
وَفِي سَبيلِ الله مَا لَقِيْتِ[18] ..."[19]

هذان البيتان مِن الشِّعر القديم- على وزن مشطور الرَّجز- لشاعر الفتوحات الإسلاميَّة عبد الله بن رواحة، قالهما في مقام الصَّبر على كُره القتال، ومشقَّة الحرب، بعد مقتل صاحبيه زيد وجعفر بن أبي طالب في غزوة مؤتة، وتتناصُّ معهما خطبة الشَّيخ العربي التبسِّي- رحمه الله- باعتبار ابن رواحة شاعره المقرَّب مِن جهة؛ وليأخذ من البيتين المشطورين معنى الصَّبر على الدَّعوة مِن جهة أخرى، لاسيَّما إنْ كان المدعوُّ بسيط الثَّقافة، بعيدًا عن الحكمة والتَّعقُّل.

ويوغل الشَّيخ في تثبيت نفسه وإخوانه الدُّعاة، بأن ذكَّرهم أنّ رضى الله- عزَّ وجلَّ- أسمى الغايات، وأعلى الأهداف؛ أمامه تهون كلُّ مشقَّة، وتزول كلُّ مصيبة؛ إنَّ الدُّعاة "شعارهم: إذا كان ربُّ العرش راضيًا، فإنَّ شفاء النَّفس هنالك...

لست أبالي حين أقتل مسلمًا *** على أيِّ جنب كان في الله مصرعي[20]

... ولذَّة الدِّفاع عن الحقِّ والرُّكون إليه، ومع أهله يَذهب معها طعم كلِّ مرَّة، وتُنْسَى فيه كلُّ كريهة."[21] مرَّة أخرى يتناصُّ كلام الشَّيخ العربي التبسِّي- رحمه الله- مع الشِّعر القديم، مع عِينيَّة الصَّحابيِّ الجليل: خُبيب بن عديّ الأوسيِّ؛ في بيت يخدم مقام الثَّبات على الحقِّ، والإصرار على المبدأ.

على أنَّه ينبغي- في هذا الصَّدد- ملاحظة أنَّ الحِجاج في البلاغة التُّراثيَّة، التي نبعتْ مِن دراسة القرآن الكريم والشِّعر القديم أساسًا، هو "مكوِّن من مكوِّنات الخطاب؛ يتشكَّل حسب تشكُّله، وتتغيَّر وظائفه، وطرقه الاستدلاليَّة بتغيُّره."[22] فلكلِّ لون من الكلام ضروب من الحِجاج، تناسبه ولا تناسب غيره، وكما أنَّ الخطاب درجات ومراتب، كذلك الحِجاج سلالِم وطبقات.

4- حجاجيَّة التَّناصِّ مع الشِّعر الحديث:

وفي قول الشَّيخ العربي التبسِّي: "والشَّعب إذا أراد الحياة، فليكن كالأمم الأخرى، التي نشدت الحياة فبلغتها، ومعنى ذلك أنَّ تحرِّر نفسها مِن أكسيَّة الجمود والنَّقائص، التي ورثتها عن الآباء."[23] تناصٌّ مع أبيات أبي القاسم الشَّابيِّ:

إذا الشَّعب يومًا فلا بد أن
أراد الحـــياة يستجيب القـدر

ولابد للَّيل أن ولا بد للقيد أن
ينجـــــــــلي ينكـــسر
ومَن لم يعانقه تبخَّر في جوها
شوق الحـــياة واندثـــــر[24]

إنَّه تناصٌّ لفظيٌّ ومعنويٌّ؛ التَّعانق اللَّفظيُّ موجود بين قول الشَّيخ: (والشَّعب إذا أراد الحياة) وبين قول الشَّابيّ: (إذا الشَّعب يومًا أراد الحياة) أمَّا الاتِّصال المعنويُّ، فيظهر في المعاني الآتية: 1- الحياة الطَّيِّبة يُسعى إليها ولا تُمنح. 2- الكرامة مطلب إنسانيٌّ، لا يختصُّ به قوم دون آخرين. 3- موروث الآباء فيه المفيد وفيه الضَّار؛ فلا يُؤخذ جُملةً ولا يترك جُملةً، بل لا بدَّ مِن غربلته. وهذه المعاني الثَّلاثة تبدو متستِّرة عند الشَّيخ وعند الشَّابيّ، إلاَّ أنها قناعات معنويَّة مشتركة بينهما، توحي بها مقالة الإمام، وقصيدة الشَّاعر.

وتبقى "الغاية من كلّ حِجاج هي جعل العقول تذعن وتسلِّم بما يُطرح عليها مِن الأقوال، أو يزيد في درجة ذلك الإذعان وذلك التَّسليم، فأنجع الحجاج والحجَّة ما وُفِّقَ في جعل حِدَّة الإذعان تقوى لدى السَّامعين بشكل يبعثهم على عمل المطلوب."[25] فالشَّيخ العربي التبسِّي- رحمه الله- لا يرجو مِن الشَّعب الجزائريّ أن يقتنع بفكرة التَّحرُّر عقليًّا، بل هو يرجو منه أن ينهض لذلك عمليًّا بتقديم الأسباب المؤدِّية إليه.

5- حجاجيَّة التَّناصِّ مع المثل:

ولم تكتف كتابات الشَّيخ العربي التبسِّي- رحمه الله- بالتَّناصِّ مع الشَّعر قديمه وحديثه، بل تعدَّته إلى التَّناصِّ مع الأمثال، مِن ذلك تناصُّه مع المثل: ((شدَّة الضَّغط تولِّد الانفجار)) في قوله: "إنَّ الله لا يرضى إهانة دينه، ولا يُحمِّل عباده المؤمنين ما لا يستطيعون مِن الصَّبر، وما لا يُحمد الصَّبر عليه، وهو إهانة دينهم، بل إنَّه سيجعل لهم في هذه البلاد رياضة على البلاء؛ تزيدهم قوَّة في هذا الاستفزاز المنكَر، وشحنًا وجمعًا لطاقة الشُّعور المكبوت بالحقد والكراهيَّة للظُّلم والاضطهاد. والمثل يقول: ((شدَّة الضَّغط تولِّد الانفجار))..."[26] وحقيقةً إنَّ كثرة ظلم فرنسا واضطهادها للجزائر منذ استعمارها سنة 1830م، ولَّد ثورة التَّحرير المظفَّرة عام 1954م.

وكان بإمكان الشَّيخ- رحمه الله- أن يساند نصَّه الحجاجيَّ السَّابق منذ البداية، باستعمال الاستفهام، كأنْ يقول: (هل الله يرضى إهانة دينه؟! وهل يُحمِّل عباده المؤمنين ما لا يستطيعون مِن الصَّبر؟!) الجواب الضِّمنيُّ: لا؛ وهو ما يؤكِّد أنَّ "الاستفهام بنية حِجاجيَّة تقوم على طرح القضيَّة المخصوصة، ثمَّ تقدِّم ما يشرحها ويعلِّلها"[27]، وفي هذا تقويَّة للحِجاج، وجعله أولى بقبول المتلقِّي.

6- حجاجيَّة التَّناصِ مع الموروث الشَّعبيّ:

لقد كان للثَّقافة الجماهيريَّة، والموروث الشَّعبيّ عمومًا مكانة في عقل الشَّيخ العربي التبسّي، ووجدانه؛ ولا أدلَّ على ذلك مِن تناصّ خِطابه- بمناسبة ختم دروس معهد عبدالحميد بن باديس- مع قول العامَّة: (هَنَا يموت قاسي) حين عبَّر عن مبدأ التَّمسُّك بأرض الجزائر، مهما كانت التَّكلفة: "لقد سلَّط علينا الاستعمار مِن القوانين الجائرة المبنيَّة على الحقد والكراهيَّة والعنصريَّة؛ ما هو حريٌّ أن يكون سببًا لارتحال كلّ حرٍّ أبيٍّ عن الوطن، ولكن العظام الطَّاهرة، عظام الآباء الكرام مِن أجدادنا، أبطال العروبة والإسلام، تنادينا أن لا نرحل عنها ونتركها، فلنُعْل الصَّوت جميعًا: لبَّيك، لبَّيك، لبَّيك، ولنقل: (هَنَا يموت قاسي)".[28]

ونلاحظ في هذا النَّصّ الحِجاجيّ للشَّيخ العربي التبسّي- رحمه الله- أنَّ القول الشَّعبيَّ (هَنَا يموت قاسي) يدعم بقوَّة فكرة التَّمسُّك بأرض الجزائر، "والتَّدعيم مكوّن أساسيٌّ من مكوّنات الحِجاج، ووسيلة مِن الوسائل المنطقيَّة الدَّلاليَّة المعتمدة فيه، كونه موصلاً ومجسّدًا للنَّتيجة سواء أكانت ظاهرة أم مضمرة"[29]. وإظهار النَّتيجة أفضل مِن إضمارها، كما هو الشَّأن في خِطاب الشَّيخ؛ وكلُّ ذلك تماشيًا مع القاعدة النَّحويَّة الأصوليَّة: الإظهار أولى مِن الإضمار.

7- حجاجيَّة التَّناصِ مع الخُطبة:

في ميدان التَّناصّ مع الخُطبة؛ نجد في كتابات الشَّيخ العربي التبسّي تقاطعًا مع خطب الإمام عليٍّ- كرَّم الله وجهه- مثل هذه العبارة الباكيَّة على الحال المتردِّيَّة للأمَّة أثناء الاستعمار الفرنسيّ: "والذي فلق الحبَّ، وبرأ النَّسم، لو أنَّ امرءًا مات أسفًا وحزنًا على حالة هذه الأمَّة، لكان له عند الله بعض العذر."[30] إنَّ هذا التَّعبير الرَّائي، على حدِّ تعبير الأستاذ: أحمد شرفي الرِّفاعي، "مقتبس بألفاظه مِن خطابين للإمام عليٍّ؛ قال في أحدهما: (أمَا والذي فلق الحبَّ وبرأ النَّسم) وقال في الثَّاني: (فلو أنَّ امرءًا مؤمنًا مات مِن بعدها أسفًا، ما كان عندي ملومًا، بل كان عندي جديرًا)..."[31] وكأنَّ الشَّيخ العربي التبسّي-رحمه الله- مزج المقبوسين المستلَّين مِن خطبتين للإمام عليٍّ- كرَّم الله وجهه- ليشكِّل تركيبًا خاصًّا في مبناه ومعناه، يستفيد من القديم للتَّعبير عن الجديد.

كما نجد في كتابات الشَّيخ العربي التبسّي تناصًّا مع خطب الخليفة عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- وفي هذا السِّياق نستحضر قول الشَّيخ ضمن خطاب في ختام المجلس الإداريّ لجمعيَّة العلماء المسلمين الجزائريّين: "يجب علينا أن نتعلَّم محاسبة أنفسنا قبل أن نحاسِب النَّاس، وقبل أن يحاسِبنا النَّاس، يجب علينا أن نكون أشدَّاء على أنفسنا؛ حتَّى نستطيع أن نحتفظ بهذا الميراث العظيم."[32] إنَّه تناصٌّ يخلو مِن التَّكلُّف والتَّصنُّع، يسير

بشكل انسيابيّ، نستحضر من خلاله قول عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- دون مشقَّة وعنت: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، و تزيَّنوا للعرض الأكبر، وإنَّما يخفُّ الحساب يوم القيامة على مَن حاسب نفسه في الدُّنيا."[33]

إنَّ جملة الحصر (إنَّما يخفُّ الحساب يوم القيامة، على مَن حاسب نفسه في الدُّنيا) تحتوي على صرفيم مميَّز في الحِجاج هو (إنَّما) و"إنَّ وجود بعض الصَّرافم في بعض الجمل يعطيها توجيهًا حِجاجيًّا؛ للوصول إلى نتيجة محدَّدة دون غيرها."[34] فالمقدِّمة (مَن حاسب نفسه في الدُّنيا) تفضي حصرًا إلى نتيجة مفادها (يخفُّ الحساب يوم القيامة) عن هؤلاء الذين حاسبوا أنفسهم في الدُّنيا.

ويكاد يُجمع دارسوا الحِجاج على أنَّ الحجَّة النَّاجحة تلازمها دائمًا نتيجة محدَّدة "ومعنى هذا التَّلازم- هنا- هو أنَّ الحجَّة لا تكون حجَّة بالنِّسبة إلى المتكلِّم إلاَّ بإضافتها إلى النَّتيجة، مع الإشارة إلى أنَّ النَّتيجة قد يصرَّح بها، وقد تبقى ضمنيَّة،"[35] يَقْدِرُ المتلقِّي بنشاطه الذِّهنيّ استشفافها، والوصول إلى كُنهها؛ فمستقبِل الحِجاج لا يُفْتَرَضُ فيه خمول الذِّهن، وسلبيَّة التَّقبُّل، بل هو مغاير لذلك تمامًا، نشيط الذِّهن، منشئًا للمعرفة.

وعمومًا، إنَّ تنوُّع حجاجيَّة التَّناصّ في كتابات الشَّيخ العربي التبسّي- رحمه الله- بين المحاجَجَة بالقرآن، والحديث، والشِّعر- قديمه وحديثه- والمثل، والموروث الشَّعبيّ، والخطبة دليل حيٌّ على سعة ثقافة الرَّجل، وخصوبة فكره، وبعد نظره، وقدرته على الحِجاج والإقناع، وبراعته في نسج الحجَّة. وإنَّ حُسن توظيف هذه التَّناصَّات دليل شامخ على موهبته الأدبيَّة، وقدرته اللُّغويَّة، وتمكُّنه من ناصيَّة القول. فرحم الله الشَّيخ العربي التبسّي رحمة واسعة، وجعل كتاباته صدقة جاريَّة يصله ثوابها، ويَفِدُ إليه عطاؤها، وينعم بآثارها الطَّيِّبة- فيما بعد- قُرَّاؤُه.

قائمة المصادر والمراجع:

01- القرآن كريم، برواية حفص عن عاصم(المدينة المنوَّرة، مُجمَّع الملك فهد لطباعة المصحف الشَّريف، 1420هـ).

02- ابن رواحة عبدالله: ديوان عبدالله بن رواحة ودراسة في سيرته وشعره، تحقيق ودراسة: وليد قصاب، ط1 (الرياض، دار العلوم، 1981).

03- أقيس خالد: آثار العربي التبسّي- دراسة فنِّيَّة، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة قسنطينة1، 2007.

04- بن عيسى عبد الحليم: "البيان الحجاجيُّ في إعجاز القرآن الكريم (سورة الأنبياء نموذجًا)" مجلَّة التُّراث العربيّ، دمشق، ع102، 2006.

05- التبسّي العربي: مقالات في الدَّعوة إلى النَّهضة الإسلاميَّة في الجزائر، ج2، جمع وتعليق: أحمد شرفي الرِّفاعي، ط1 (باتنة، دار الشِّهاب، 1984).

06- التبسّي العربي: مقالات في الدَّعوة إلى النَّهضة الإسلاميَّة في الجزائر،ج1، جمع وتعليق: أحمد شرفي الرِّفاعي، ط1 (قسنطينة، دار البعث، 1981).

07- حمدي منصور جودي: خصائص الخطاب الحجاجيّ وبنياته الإقناعيَّة في أعمال البشير الإبراهيمي، مذكِّرة ماجستير غير منشورة، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2008/2007.

08- سعديَّة لكحل: الحجاج في خطابات النَّبيّ إبراهيم عليه السَّلام، مذكِّرة ماجستير غير منشورة، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، 2012/2011.

09- سلمان علي: "النَّظريَّة الحجاجيَّة في البلاغة العربيَّة تكاد تكون مفقودة" صحيفة الوسط، البحرين، ع:2750، مارس 2010، مأخوذ من الموقع: www.alwasatnews.com

10- الشَّابيُّ أبو القاسم: أغاني الحياة، ط1 (بيروت، دار صادر، 1999).

11- صولة عبد الله: الحجاج في القرآن من خلال أهمِّ خصائصه الأسلوبيَّة، ج1 (تونس، منشورات كلية الآداب بجامعة منُّوبة، 2001).

12- صولة عبد الله: تقديم لمصنف الحجاج والبلاغة الجديدة، ضمن كتاب: أهمُّ نظريَّات الحجاج، إشراف: حمَّادي صمُّود، ج1، ط7 (تونس، منشورات كلية الآداب بجامعة منُّوبة، 1998).

13- طروس محمَّد: النَّظريَّة الحجاجيَّة من خلال الدِّراسات البلاغيَّة والمنطقيَّة واللِّسانيَّة (المغرب، دار الثَّقافة (د.ت).

14- عبد النَّعيم محمَّد فراج: "ولست أبالي..." مأخوذ من الموقع: www. forum.islamstory.com.

15- العبد محمَّد: "النَّصُّ الحجاجيُّ العربيُّ، دراسة في وسائل الإقناع" مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ع 60، 2002.

16- عشير عبد السَّلام: عندما نتواصل نغيِّر- مقاربة تداوليَّة معرفية لآليات التَّواصل والحجاج (المغرب، إفريقيا الشَّرق، 2006).

17- عيسى محمَّد حاج: "حياة الشَّيخ العربي التبسِّي وأصول دعوته الإصلاحيَّة" مأخوذ من الموقع: www.ahlalhdeeth.com

18- فرحان علي عبد النَّبيّ: "وظيفة التَّناصّ الحجاجيَّة والتَّأثيريَّة في مقامات الحريريّ" ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته- دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، إشراف: حافظ إسماعيلي علوي، ج2، ط1 (الأردن، عالَم الكتب الحديث، 2010).

19- كنعان محمَّد بن أحمد: فقه الحديث عند أئمَّة السَّلف برواية الإمام التِّرمذيّ، ج2، ط1 (بيروت، مؤسَّسة المعارف، 1998).

20- المبخوت شكري: نظرية الحِجاج في اللُّغة (تونس، منشورات كلية الآداب بجامعة منُّوبة (د.ت).

21- مجمع اللُّغة العربيَّة بالقاهرة: المعجم الوسيط، ط4 (القاهرة، مكتبة الشُّروق الدوليَّة، 2008).

22- مسعودي الحواس: "البنية الحجاجيَّة في القرآن الكريم (سورة النَّمل نموذجًا)" مجلَّة اللُّغة والأدب، معهد اللُّغة العربيَّة وآدابها، الجزائر، ع12، ديسمبر 1997.

23- نوفل يوسف حسن: استشفاف الشِّعر، ط1 (القاهرة، الشَّركة المصريَّة العالميَّة للنَّشر- لونجمان، 2000).

24- النَّوويُّ أبو زكريَّا يحيى بن شرف: رياض الصَّالحين، ط1 (بيروت، دار الفكر، 2003).

25- Osowald Ducrot: Les mots du discours, ed.Minuit, 1980

الهوامش:

---

1 "وُلِدَ العربي بن بلقاسم بن مبارك بن فرحات التبسِّي بقرية (ايسطح) النَّمُوشيَّة (نسبة إلى قبيلة النَّمامشة الأمازيغيَّة الكبيرة) جنوب غرب "تبسَّة"- وتبعد عنها بنحو مائة وسبعة عشر (117) كيلو متر- وذلك عام 1312هـ (1895م) في عائلة فلاحية فقيرة، وكان والده إلى جانب عمله في الزِّراعة يتولَّى تحفيظ القرآن لأبناء القرية في الكتاب. ابتدأ العربي التبسِّي حفظ القرآن على يد والده في مسقط رأسه وقد توفي والده حوالي سنة 1320هـ (1903م) وفي سنة 1324هـ (1907م) رحل إلى زاوية ناجي الرَّحمانية بـ"الخنقة" جنوب شرق "خنشلة" فأتمَّ بها حفظ القرآن خلال ثلاث سنوات، ثم رحل إلى زاوية مصطفى بن عزوز بـ"نفطة" جنوب غرب تونس في سنة 1327هـ (1910م) وفيها أتقن رسم القرآن وتجويده، وأخذ مبادئ النَّحو والصَّرف والفقه والتوحيد، وفي سنة 1331هـ (1914م) التحق بجامع الزَّيتونة بتونس العاصمة؛ حيث نال شهادة الأهليَّة واستعدَّ لنيل شهادة التَّطويع ولم يتقدَّم للامتحان، ورحل إلى القاهرة حوالي سنة 1339هـ (1920م) ومكث فيها يطلب العلم في حلقات جامع الأزهر ومكتباتها الغنيَّة إلى سنة

(1927م) ثم رجع في السَّنة نفسها إلى تونس وحصل على شهادة التَّطويع العالميَّة..."

للحصول على ترجمة وافيَّة للشَّيخ العربي التبسّي؛ يُنظر: عيسى محمَّد حاج: "حياة الشَّيخ العربي التبسّي وأصول دعوته الإصلاحيَّة" مأخوذ من الموقع: www.ahlalhdeeth.com في تاريخ: 23 مارس 2014.

2 فرحان علي عبد النَّبيّ: "وظيفة التَّناصّ الحجاجيَّة والتَّأثيريَّة في مقامات الحريريّ" ضمن كتاب: الحجاج مفهومه ومجالاته- دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، إشراف: حافظ إسماعيلي علوي، ج2، ط1 (الأردن، عالَم الكتب الحديث، 2010) ص:312.

3 العبد محمَّد: "النَّصُّ الحجاجيُّ العربيُّ، دراسة في وسائل الإقناع" مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ع60، 2002، ص:44.

4 صولة عبد الله: الحجاج في القرآن من خلال أهمّ خصائصه الأسلوبيَّة، ج1، (تونس، منشورات كلية الآداب بجامعة منُّوبة، 2001) ص:13.

5 أقيس خالد: آثار العربي التبسّي- دراسة فنّيَّة، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة قسنطينة1، 2007، ص:166.

6 نوفل يوسف حسن: استشفاف الشِّعر، ط1 (القاهرة، الشَّركة المصريَّة العالميَّة للنَّشر- لونجمان، 2000) ص:98.

7 عشير عبد السَّلام: عندما نتواصل نغيّر- مقاربة تداوليَّة معرفيَّة لآليات التَّواصل والحجاج (المغرب، إفريقيا الشَّرق، 2006) ص:55.

8 مسعودي الحواس: "البنية الحجاجيَّة في القرآن الكريم (سورة النَّمل نموذجًا)" مجلة اللُّغة والأدب، معهد اللُّغة العربيَّة وآدابها، الجزائر، ع12، ديسمبر 1997، ص:328.

9 روى الحديث الثِّقة: النَّوَّاس بن سمعان، رضي الله عنه.

يُنظر: النَّوويُّ أبو زكريَّا يحيى بن شرف: رياض الصَّالحين، ط1 (بيروت، دار الفكر، 2003) ص:195.

10 القرآن كريم، برواية حفص عن عاصم (المدينة المنوَّرة، مُجمَّع الملك فهد لطباعة المصحف الشَّريف، 1420هـ) سورة محمَّد، الآية: 38.

11 التبسّي العربي: مقالات في الدَّعوة إلى النَّهضة الإسلاميَّة في الجزائر، ج2، جمع وتعليق: أحمد شرفي الرِّفاعي، ط1 (باتنة، دار الشِّهاب، 1984) ص:115.

12 سعديَّة لكحل: الحجاج في خطابات النَّبيّ إبراهيم عليه السَّلام، مذكِّرة ماجستير غير منشورة، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، 2012/2011، ص:37.

13 سلمان علي: "النَّظريَّة الحجاجيَّة في البلاغة العربيَّة تكاد تكون مفقودة" صحيفة الوسط، البحرين، ع:2750، مارس 2010، مأخوذ من الموقع: www.alwasatnews.com في تاريخ: 20 أفريل 2010.

14 النَّوويُّ أبو زكريَّا يحيى بن شرف: رياض الصَّالحين، ص:51.

15 عيسى محمَّد حاج: "حياة الشَّيخ العربي التبسّي وأصول دعوته الإصلاحيَّة" مأخوذ من الموقع: www.ahlalhdeeth.com في تاريخ: 2013/03/08.

16 التبسّي العربي: مقالات في الدَّعوة إلى النَّهضة الإسلاميَّة في الجزائر، ج2، جمع وتعليق: أحمد شرفي الرِّفاعي، ص:38.

17 الهَلْتَاتُ: الجماعة يُقيمون ويرتحلون.

يُنظر: مجمع اللُّغة العربيَّة بالقاهرة: المعجم الوسيط، ط4 (القاهرة، مكتبة الشُّروق الدوليَّة، 2008) ص:1032.

18 ابن رواحة عبدالله: ديوان عبدالله بن رواحة ودراسة في سيرته وشعره، تحقيق ودراسة: وليد قصاب، ط1 (الرياض، دار العلوم، 1981) ص:154.

19 التبسّي العربي: مقالات في الدَّعوة إلى النَّهضة الإسلاميَّة في الجزائر،ج1، جمع وتعليق: أحمد شرفي الرِّفاعي، ط1 (قسنطينة، دار البعث، 1981) ص:74.

20 البيت من عِينيَّة مشهورة لخبيب بن عديّ، وهو صحابيٌّ جليل من الأوس، قارئ ومجاهد وداعية، كان في البعثة التي أرسلها الرسول- صلى الله عليه وسلم- إلى نجد؛ حيث أُسِر، وعُذِّب، وفي هذا السياق قال عِينيَّته المشهورة، ذات المطلع: لقد جمَّع الأحزاب حولي وألَّبوا *** قبائلهم واستجمعوا كلَّ مَجمعِ.

يُنظر: عبد النَّعيم محمَّد فراج: "ولست أبالي..." مأخوذ من الموقع: www. forum.islamstory.com في تاريخ: 23 مارس 2014.

21 التبسّي العربي: مقالات في الدَّعوة إلى النَّهضة الإسلاميَّة في الجزائر، ج2، جمع وتعليق: أحمد شرفي الرِّفاعي، ص:57-58.

22 طروس محمَّد: النَّظريَّة الحجاجيَّة من خلال الدِّراسات البلاغيَّة والمنطقيَّة واللِّسانيَّة (المغرب، دار الثَّقافة، (د.ت) ص:14.

23 التبسّي العربي: مقالات في الدَّعوة إلى النَّهضة الإسلاميَّة في الجزائر، ج2، جمع وتعليق: أحمد شرفي الرِّفاعي، ص:167.

24 الشَّابيُّ أبو القاسم: أغاني الحياة، ط1 (بيروت، دار صادر، 1999) ص:199.

25 صولة عبد الله: تقديم لمصنف الحجاج والبلاغة الجديدة، ضمن كتاب: أهمُّ نظريَّات الحجاج، إشراف: حمادي صمُّود، ج1، ط7 (تونس، منشورات كلية الآداب بجامعة منوبة، 1998) ص:299.

26 التبسّي العربي: مقالات في الدَّعوة إلى النَّهضة الإسلاميَّة في الجزائر،ج1، جمع وتعليق: أحمد شرفي الرِّفاعي، ص:211.

27 بن عيسى عبد الحليم: "البيان الحجاجيُّ في إعجاز القرآن الكريم (سورة الأنبياء نموذجًا)" مجلَّة التُّراث العربيّ، دمشق، ع102، 2006، ص:13.

28 التبسّي العربي: مقالات في الدَّعوة إلى النَّهضة الإسلاميَّة في الجزائر، ج2، جمع وتعليق: أحمد شرفي الرِّفاعي، ص:199.

29 حمدي منصور جودي: خصائص الخطاب الحجاجيّ وبنياته الإقناعيَّة في أعمال البشير الإبراهيميّ، مذكِّرة ماجستير غير منشورة، جامعة محمَّد خيضر، بسكرة، 2008/2007، ص:107.

30 التبسّي العربي: مقالات في الدَّعوة إلى النَّهضة الإسلاميَّة في الجزائر، ج2، جمع وتعليق: أحمد شرفي الرِّفاعي، ص:61.

31 المصدر نفسه، ص:37.

32 نفسه، ص:201.

33 كنعان محمَّد بن أحمد: فقه الحديث عند أئمَّة السَّلف برواية الإمام التِّرمذيّ، ج2 ، ط 1 (بيروت، مؤسَّسة المعارف، 1998) ص:204.

34 Osowald Ducrot: Les mots du discours, ed.Minuit, 1980, P:27.

35 المبخوت شكري: نظريَّة الحِجاج في اللُّغة (تونس، منشورات كلية الآداب بجامعة منُّوبة (د.ت) ص:363.